صورة اللاجئ الفلسطيني في تجربة فدوى طوقان الشعرية

بحث مقدم لمؤتمر "اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة"

جامعة القدس المفتوحة

2012/5/13

د.عبد الرحيم حمدان

2012م

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة صورة اللاجئ الفلسطيني كما جسدتها الشاعرة فدوى طوقان، وستعالج هذه المقاربة محاور عدة منها: توقع النكبة ومواكبتها، وتصوير معاناة اللاجئين وعذاباتهم،و تصوير الجرائم البشعة التي ارتكبها العدو في حقهم، وتصوير همجية العدو، وتوقه لسفك دماء الفلسطينيين، وتمجيد الشهداء اللاجئين الذين سقطوا وهم يعبدون درب العودة إلى الوطن، وتجسيد مشاعر الشوق والحنين وهاجس العودة إلى الوطن، والدعوة إلى الصمود والتجذر في الوطن، والحث والتحريض على الكفاح من أجل تحرير الوطن.

تهدف الدراسة أيضاً إلى الكشف عن الوسائل التعبيرية المتعددة التي استعانت بها الشاعرة في التعبير عن تجربتها الإنسانية، وتجسيد أفكارها وتصويرها من: صور موحية، وإيقاع نغمي متنوع، وبناء فني للقصائد، واستدعاء للتراث، وغيرها من الوسائل الفنية التي تسهم في تعميق تجربتها الشعرية، ورؤيتها للعالم.

Image of the Palestinian refugees as embodied by the poet Fadwa Toukan,

Abstract:

The aim of this study approach image of the Palestinian refugees as embodied by the poet Fadwa Toukan, and will deal with this approach, several issues including: expect the Nakba and to keep pace, portraying the suffering of refugees and sufferings, imaging and heinous crimes committed by the enemy in their right, and portray savagery of the enemy, and his longing for shedding the blood of the Palestinians, and the glorification of the martyrs of refugees who have fallen and they worshiped the trail back to the homeland, and to reflect the feelings of longing and obsession to return home, and call for steadfastness and deep-rooted in the nation, urging and inciting the struggle for the liberation of the homeland.

Designed study also detected means expressive multi-used by the poet to express her experience of humanity, and the embodiment of ideas and photographed: image suggestive, and the rhythm of tonal variety, and building technician for the poems, and call for the heritage, and other technical means which contribute to deepen the experience of poetry, and vision to the world.

مقدمة :

لا شك في أن نكبة عام 1948م التي حلت بالشعب الفلسطيني كانت كارثة فادحة، إذ كان من نتائجها تمزق الوطن، واغتصاب الأرض، وتشريد الأهل عن أوطانهم ولجوؤهم إلى الخيام البائسة والكهوف المظلمة، ومعسكرات التشريد داخل الوطن وخارجه، يذوقون الذل والقهر والمهانة، يواجهون مصيراً بائساً وحياة قاسية في ظل واقع جديد مؤلم.

وفي سنة 1967م حدثت هزيمة السادس من حزيران، وفيها استكمل العدو الصهيوني احتلال ما تبقى من الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وولدت من رحم النكسة ظاهرة النازحين الذين طردوا من أرضهم إلى دول عربية مجاورة، وهاموا على وجوههم في حالة من الضياع والتشريد لم يسبق لها مثيل، وحرم من كان خارج الوطن من العودة إليه ، وهكذا نشأ وضع مأساوي جديد، لم يكن الفلسطينيون النازحون يتصورون حدوثه، وما زال المحتل الغاصب يمارس بحق المواطنين أبشع صور المهانة والإذلال، وما زال يمارس سياسة الإبعاد القسري عن الوطن حتى وقتنا الحاضر.

واكب الشعراء النكبة الأولى عام 1948م، وهزيمة 1967م، وما أعقبها من تشتت لأبناء الشعب الفلسطيني وتوزعه خارج الوطن وداخله وقيام كيان دخيل مكانه، فوصفوا مأساته ومظاهرها المتعددة ؛ ورسموا مشاهد مفجعة لعملية الرحيل والهجرة التي مرّ بها الإنسان الفلسطيني اللاجئ، وتحدثوا عن حياة المشردين في الخيام في ذل وقهر، وجسدوا معاناة اللاجئين وعذاباتهم في المنافي وبلاد الشتات، وصوروا المذابح والمجازر التي ارتكبها العدو الصهيوني بحقهم في سبيل تخويفهم وإجبارهم على ترك أرضهم وديارهم، ليحل محلهم غرباء مغتصبون من شذاذ الآفاق، وهكذا فجرت المحنة التي تعرض لها أبناء الشعب الفلسطيني قرائح الشعراء، وأنطقت ألسنتهم، وولدت لديهم أساليب ورؤى شعرية جديدة، وصوراً دامية معبرة، فليس ما يصهر النفس كالألم.

استولت ظاهرة اللاجئين على المشهد الفلسطيني، وكانت الإشارة إلى مأساتهم تبدأ بعناوين المجموعات الشعرية، فهذا أبو سلمى يصدر ديوان "المشرد"، أما يوسف الخطيب، فإن عنوان مجموعته المميزة المبكرة، هو"عائدون". ولعل أول مجموعة فلسطينية تنطلق من مأساة اللاجئين، كانت للشاعر هارون هاشم رشيد، وهي "مع الغرباء"، وقد صدرت عام 1954م، وهناك مجموعات تشير عناوينها إلى الجرح الفلسطيني بصورة مطلقة، مثل "فلسطين على الصليب" للشاعر معين بسيسو، و"حيفا في سواد العيون" للشاعر حسن البحيري، و"كلمات فلسطينية" للشاعر حسن النجمي.

وقد وقع اختيار الباحث على صورة اللاجئ الفلسطيني عند الشاعرة فدوى طوقان([1])؛ لتكون مادة لبحثه لأسباب منها؛ كون الشاعرة إحدى الشاعرات اللائي قُدّر لهن أن تشهدن فصول مأساة وطنها المنكوب ومراحل نضاله، واطّلعت عن كثب على جرائم الصهاينة بحق أبناء شعبها، وشهدت بأم عينها ما عاناه المشردون من عنت ووصب، وما واجهوه من فظاظة اليهود وجرائمهم؛ وبذلك غدا شعرها سجلاً صادقاً لأطوار القضية الفلسطينية، وذا قيمة وثائقية مهمة، وتحققت لتجربتها الشعرية السمات الأساسية التي جعلت منه قيمة فنية وموضوعية وتاريخية عظيمة، ووصلت في شعرها إلى مستوى من النضج الفني جعلها تقف بين

شعراء الصف الأول في الوطن العربي؛ الأمر الذي أضفى على شعرها ميزة عالمية إنسانية، وهي من بين الشاعرات العربيات اللواتي أسهمن في تطور الحركة الشعرية النسوية، ونقلها إلى مستوى التعبير الصادق عن المشاعر الأنثوية.

لقد كانت مأساة الشعب الفلسطيني وضياع أرضه وتمزقه وتوزعه على أنحاء المعمورة، وما نجم عنها من ولادة ظاهرة اللاجئين رافداً ثرياً من روافد تجربة الشاعرة فدوى طوقان الشعرية، ففي دواوينها ما يسجل وقع النكبة في وجدانها، وقد تمكنت من أن تمزج مأساتها الذاتية بمآسي شعبها وتجاربه الوطنية، في قصائد مفعمة بالمشاعر الإنسانية.

احتكمت منهجية هذه الدراسة إلى استقراء أشعار الشاعرة فدوى طوقان التي صورت فيها حياة اللاجئين الفلسطينيين، وما حلّ بهم من صنوف العذاب والجرائم، وما اعتمل في نفوسهم من شوق وحنين وتطلع إلى العودة إلى الوطن، ومن ثم الوقوف عند النصوص المراد دراستها، ومعالجتها معالجة تحليلية تكشف عن خصائصها الأسلوبية وسماتها الفنية؛ لأن منهج تحليل النصوص الأدبية "يأخذ في الاعتبار محاوله استقصاء الجوانب التي يمكن أن تؤثر في فن الشعر على مستوى الصياغة الجمالية والمحتوى معاً"([2]) .

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يقصر الباحث دراسته على تناول أبعاد صورة اللاجئ وملامحها في المحاور الآتية:

- توقع النكبة ومواكبتها.
- تصوير معاناة اللاجئين وعذاباتهم.
- تصوير المجازر والجرائم والإرهاب الصهيوني.
- الشوق والحنين وهاجس العودة إلى الوطن.
- الحث والتحريض.

أولا – توقع النكبة ومواكبتها :

تعد الشاعرة فدوى طوقان من بين الشعراء الفلسطينيين الذين أدركوا بحسهم الشعري غاية الحركة الصهيونية ومخططاتها للسيطرة على أرض فلسطين، فأبدت يقظة وتنبهاً إلى ذلك الخطر الذي يسعى إلى تشريد أهل فلسطين من ديارهم، وإحلال قوم غرباء مكانهم، فراحت تحذّر أبناء شعبها وتبصرهم بالمصير المفجع الذي ينتظرهم على أيدي العصابات الصهيونية قبل أن يقع، ففي قصيدة بعنوان:"الروض المستباح" نظمتها قبيل حرب فلسطين 1948م، وصاغتها في أسلوب الحكاية الرمزية البسيط، تقول مخاطبة الطائر([3]):

انفض جناحيـــــك من الرقدة يا طائري، أخشى عليك المصيرْ
لا تمكن البوم من الروضـــــة أرى لذاك البـــــوم شأنا خطيرْ
أضب للوكر على على شـــرة فيما أراه، وأذى مستطيـــــرْ

عليـــــــــك بالحذر، فكم غفلة يؤخذ منها المرء أخذاً نكيــــــرْ

تناجى الشاعر في هذا المقطع طائراً في الروض، كَفَّ عن الغناء فجأة، وتساءلت عن سبب صمته، فاكتشفت أن هناك طائر البوم الذي يحوّم في الروض، يثير الرّعب والخوف. وقد اتخذت من الحكاية الرمزية وسيلة للتعبير عن تجربتها الشعرية، فالرموز بسيطة سهلة، فالروض يرمز لأرض فلسطين، والطائر يرمز للشعب الفلسطيني، والبوم يرمز للعدو الصهيوني ومَنْ ورائه من قوافل المهاجرين اليهود المستعمرين .

وفي خاتمة القصيدة تتدخل الشاعرة/ الراوي؛ لتحذر الطائر من شر البوم وخطره؛ لأن وراءه قوماً يتربصون به الدوائر، تقول([4]):

ويلك، لا تأمن غريــــــب الديار فخلفه من مثـــــــــــله معشرُ

يا طائـــــــري، إنّ وراء البحار مثـــل عديـــــد الذرّ لو تنـــظرُ

تربّصــــــــوا في لهفة وانتظار ودبــــــّروا للأمر ما دبّـــروا..

تحفزهم تلك الأماني الكبــــــار وأنت أنت المطـــمع الأكبـــــرُ

وقد أطلق النقاد على هذا النوع من القصص اسم"الاستعارة الرمزية التي "تأخذ فيها الطيور والحيوانات والنباتات والأشياء بعامة"رموزاً لشخصيات إنسانية أو وسائل لتقرير الأفكار والمعاني الخلقية والاجتماعية"([5])، بيد أن الشاعرة لم تحاول الإفادة من الإمكانات الإيحائية التي وفرتها الرموز لها، فجاءت حكايتها ذات أفكار واضحة وصريحة، كما اقتربت دوالها من التقريرية والخطابية المباشرة، واعتمدت الصور الجزئية الجاهزة المبنية على الوصف الخارجي للمنظر؛ الأمر الذي أفقدها التفرد والخصوصية، والتفاعل مع بقية العناصر الشعرية في بناء الصورة الكلية للقصيدة([6]).

ولم تكد تمضي سنوات قليلة حتى تحقق ما كانت تتوقعه الشاعرة، فحدثت النكبة، وطرد البوم/ الصهاينة الشعب الفلسطيني من الروض/ فلسطين، فتألمت لما حاق بالوطن من هزائم، وما نزل بساحته من مواجع وآلام، فأخذت تناجي الوطن بنغمة حزينة مترعة بالأسى([7]):

يا وطني، مالك يخني على روحك معنى الموت معنى العدمْ

أمضك الجرح الذي خانه أسأتـــــه في المأزق المحتـــدم

جرحك ما أعمق أغواره كم يتـــــــنزى تحت ناب الألم

لا ريب في أن الشاعرة التي رسمت نذراً، وصورت بوماً مشئوماً في ما قبل النكبة، قد انبرت مجدداً واصفةً بما تمتلكه من حسّ واعٍ، وبصيرة نافذة هدف العدو وخططه الماكرة، معتمدة في ذلك على معطيات واقعية سواء من خلال الهجرات اليهودية المتعاقبة أم من خلال السكوت، والتواطؤ العربي مع الغرب المتصهين، وتآمر الدول الكبرى على قضية هذا الشعب، وانحيازها للكيان الصهيوني، تقول كاشفة تقاعس الزعماء العرب وتخاذلهم عن نصرة الشعب الفلسطيني، والذين مالوا إلى الخنوع والاستسلام([8]):

هم الأنانيون . . قد أغلقوا قلوبهم دون البلاء الملم
لا روح يستنهض من عزمهم لا نخوة تحفزهم ، لا همم
أحنوا رقاب الذل ، يا ضعفهم واستسلموا للقادر المحتكم

المتأمل في رؤية الشاعرة ونظرتها العميقة للأمور، يجدها قد سارت على درب شقيقها الشاعر إبراهيم طوقان الذي كان يشير في شعره بصراحة قبل وقوع نكبة 1948م إلى احتمال ضياع فلسطين وطرد شعبها من أرضه، إذ يقول في ذلك مخاطباً بعض الزعماء([9]):

في يدينا بقية من بلاد فاستريحوا كيلا تطير البقية

وفي موطن آخر يحذر الشاعر أبناء شعبه من الهجرة الصهيونية، ويدعوهم إلى مقاومة تلك الهجرة والتصدي للمهاجرين اليهود وطردهم من ديار الآباء والأجداد([10]) :

يهاجر ألف .. ثم ألف مهرباً ويدخل ألف سائحاً غيــر آيبِ

بنى وطني أهل يقظة بعد رقدة؟ وهل من شعاع بين تلك الغياهب.

وشاء القدر أن يتوفى الشاعر إبراهيم طوقان 1941م قبل أن تتحقق نبوءته السوداء بسبع سنوات من الهزيمة وولادة ظاهرة اللاجئين الفلسطينيين، وهذا يشي بقدرته على استشراف المستقبل، وتوقع المأساة المفجعة التي حلت بقضية فلسطين.

ثانياً – تصوير المعاناة والعذابات التي تعرض لها اللاجئ:

رسمت الشاعرة بعضاً من ألوان المعاناة والعذاب التي اكتوى بنارها اللاجئون الفلسطينيون، فهم يعانون التشرد والشتات، ويكابدون الحصول على مأوى، فلا يجدون غير الخيام البائسة، والكهوف المظلمة، يأوي إليها من ضاقت به سبل الحياة بعد أن كان ناعماً منعماً في وطنه.

ففي قصيدة بعنوان"رقية"حاولت الشاعرة أن تقدم نموذجاً بشرياً للأمومة المعذبة والطفولة البائسة التي تتمثل في أم فلسطينية لاجئة حاولت أن تأوي وابنها إلى أحد كهوف"جبل النار" بنابلس، وسط برد شديد، وحالة من الحرمان والتشرُّد الشديدين بعد أن طردت من وطنها، وفقدت زوجها الذي استشهد دفاعاً عن الحمى، تقول([11]):

هنالك ضمّ (رقية) كهف رغيب عميق كجرح القــدرْ
تدور به لفحات الصقيع فيوشك يصطكّ حتى الصــخرْ
وتجمد حتى عروق الحياة ويطفأ فيها الدم المستـــــعرْ

حاولت الشاعرة أن تعبر عن التراجيديا الفلسطينية انطلاقاً من حالات إنسانية متعددة، ونظرت إلى التجارب الإنسانية نظرة واقعية، رأت اللاجئة الفلسطينية "رقية، بوصفها صورة من صور النكبة، تنفتح على مأساة إنسانية تكاد أن تنفطر من هولها القلوب([12]).

(رقيّة) يا قصة من مآسي الحمى سطرّتها أكفّ الغيـــــــر

ويا صورةً من رسوم التشرد، والذل، والصدعات الآخـــــــر
طغى القرّ، فانطرحت هيكلاً شقيّ الظلال، شقي الصور!!

تجلت ملامح شخصية الأم اللاجئة جلية واضحة، إذ صورت الشاعرة الأم اللاجئة تصويراً فنياً صادقاً ينبع من صدق تجربتها الشعورية وانفعالها بالموقف. فـ"رقية" تنطرح في كهفها كتمثال بلا حول ولا قوة وسط مظاهر البؤس والشقاء، وهي تضم في حضنها صغيرها الذي تشتم فيه رائحة وطنها الضائع، والذي سيشكل بذرة الغد الثائر على حالة الضياع هذه، إنها تصور واقعاً وحلماً، "تنقل القارئ من الحاضر إلى الماضي..من الخاص إلى العام، من أزمة واحدة ذاتية إلى أزمة عامة شعبية"([13]) .

في هذا المشهد تحولت المرأة الفلسطينية من المواطنة إلى اللجوء، وباتت تكتوي بنار التشريد، وقد رصدت الشاعرة عنصر الطفولة بكل ما فيه من براءة وجمال وطهر، تفقد الأمل والأمان بمفارقة الوطن، ويحمل النص مفردات اللجوء من: خيمة، فقر، تشرد، حمي، ذل، ديار، نار، وقد تضافرت تلك الدوال في رسم مشهد مليء بالحزن والرعب في نسيج واعٍ؛ لتعبر عن معاناة المرأة اللاجئة وتشردها وضياعها. إنها ترى في ابنها اليتيم رمزاً لجيل قادم تعمّقت فيه روح الفداء، وهو يرتشف حليب الأم المشبع بمرارة المأساة وحرقتها([14]):

وغمغم: أمّ وراحت يداه تعيثان ما بين نحر وخدْ
فأهوت على الطفل تشتم فيه روائح فردوسها المُفتقد

وفي القصيدة ذاتها صورت الشاعرة آلام اللاجئة النفسية والمعنوية: كالإحساس بالبؤس والشعور بالضياع والغربة والوحشة وموجات القلق النفسي والحيرة والاضطراب ولذع ذكريات الأيام المشرقة والعهود السعيدة، إذ تتذكر "رقية" ملاعب الطفولة وأيام الجذل والمرح قبل أن تحملها رياح التشرُّد نحو المجهول([15]):

وطالعها في رؤى الذكريات فتاها، نجي العلى والطماح
إباء الرجولة في بردتيــه وزهو البطولة ملء الوشاح
هوى صريعا وأرخى على حطام أمانيه ريح الجنـــــاح

فالوالد قد استشهد في معارك الدفاع عن فلسطين، ولا بدّ لهذا الشبل أن يكون من ذاك الأسد، وقد أثار هذا التصوير في وجدان المتلقي مشاعر التعاطف والمشاركة مع هذه الأم ووليدها، كما أن الشاعرة وسعت من ملامح شخصية الأم وأبعادها، فـ "رقية" ترمز لكل امرأة فلسطينية اكتوت بنار النكبة، ولكل أم ترضع طفلها لظى حقدها على عدو سلب الديار وشتت الأهل، والابن يرمز لشباب المستقبل الذي سينقم من أعدائه، وبذلك تحددت الشخصيتان، وبرزت معالمهما واضحة جلية.

ومن التقنيات الفنية التي عمدت الشاعرة إلى استثمارها للتعبير عن تجربتها الشعرية العتباتُ النصية التي تتمثل في التمهيد، فقد جاءت القصيدة تحت عنوان:"رُقَيّة"، وأسفل العنوان كتبت هذه العبارة "من صُور النكبة"؛ فشكلت بذلك بداية لموقف الشاعرة ورؤيتها، إذ أخذت تصور في هذه القصيدة انعكاس النكبة وآثارها في وجدانها وأحاسيسها، وما نجم عنها من آثار على حياة الشعب الفلسطيني، وأخذت تنقل للمتلقي صوراً

مؤلمة من النكبة ومشاهدها، فوجدت في صورة المرأة اللاجئة نموذجاً حياً لكل امرأة شردها العدو من وطنها وأصبحت لاجئة بعد أن كانت مواطنة مكرمة.

ولا يخفى على المتلقي أن استعانة الشاعرة بهذه العتبة النصية، كان الهدف منه أداء أغراض ومقاصد كثيرة من أهمها: ترسيخ المضامين والمعاني الإنسانية في ذهن القارئ؛ وجعلها مفتاحاً للدخول إلى عالم النص الداخلي، إذ يجد القارئ أن هذه الدلالات مبثوثة في ثنايا القصيدة برمتها، ومتكررة بألفاظها، ولكن بشيء من الإيحاء الشفيف الذي يجعله يدرك معالم شخصية رقية المرأة اللاجئة" التي تتحدث عنها، "فالتمهيد بوصفه نصاً موازياً يؤدي وظائف ومهام دلالية وبنائية متعددة منها: فك شفرات النص وتوجيهها، وحماية النص من سوء الفهم، وإرشاد المتلقي نحو القراءة المفضية إلى الفهم السليم، وإقصاء التأويلات البعيدة وغير الملائمة، فضلاً عن كونه يسهم في جعل المتلقي يقترب أكثر من النص المركزي /الأصلي"([16]).

وفي مشهد آخر من مشاهد اللجوء ترسم الشاعرة صورة قاتمة محزنة من صور النكبة تمزج فيها البعد الوطني في البعد الاجتماعي، وذلك عندما تصور نموذجاً بشرياً لامرأة فلسطينية لاجئة تعيش مع صغيرها تحت ألواح الصفيح، وقد منحت طفلها اليتيم عطفها وحنانها، ممهدة لقصتها الشعرية بوصف مظاهر البؤس والشقاء التي كان يعانيها هذا الطفل اليتيم، تقول في قصيدة "يتيم وأم"([17]):

وا حنـــــــــــــــاناه لأمٍ أيّـــــــــــــــمٍ طوت النفس على خوف وغمْ

فنضّت عنها الثياب السود ؛ لا لا تظنوا جرحها الدامي التأمْ

بل لدفع الشؤم عن واحدها يا لقلب الأم إن أشعر هـــــــــم !

وبدت في البيض من أثوابها من رأى إحدى حمامات الحرمْ

نظر الطفل إليـــها صامتا وبعينيـــــه حديـــــث وكلم...

قال يا أمي . تـــرى أين أبي لم لا يرجع من حيـــــث اعتزمْ

ضمت الطفل إليـــــــها بيدٍ وبأخرى مسحت دمـــــــعا سجمْ

عز ما يطلبـــــه، يا رحمتا كيـــــف تأتي بـــــرفات ورمم!؟

تنبض هذه الأبيات بمشاعر الأسى والحسرة والحزن الممزوجة بأحاسيس المذلة والهوان، إذ صورت الشاعرة المصير الذي آل إليه الشعب الفلسطيني بعد نزوحه وتشرده وهيامه في كل اتجاه، وقد جاء ذلك في لقطات متتابعة من الأسى والألم؛ لتجسد فداحة الظلم الذي حلّ بهذه اللاجئة الفلسطينية التي تعد رمزاً للشعب الفلسطيني المشرد.

من يتأمل أحاسيس الشاعرة في هذا المقطع ومشاعرها تجاه الطفل اليتيم وأمه، يجد أنها لم تكن من العمق بحيث تثير في وجدان المتلقي إحساساً بالمعاناة النفسية الداخلية لليتيم وأمه، إذ اعتمدت في رسم شخصياتها على الوصف الخارجي دون التعمق في تحليل نفسيتهما، وبذلك يفقد المتلقي تعاطفه مع هذه الشخصيات.

إن وسائل التعبير التي توسلتها الشاعرة من خيال ولغة وإيقاع نغمي، لم تتفاعل فيما بينها بصورة ملتحمة، ففقدت القصيدة بذلك تلاحمها، ومال البناء إلى التفكك والتسطيح، فالصور الشعرية جاءت تقريرية ساذجة متراكمة غير متآزرة، وغلب على الدوال طابع النثرية المباشرة؛ لافتقارها إلى اللفظة التصويرية الموحية. وربما يعود ذلك إلى أن هذه القصيدة تعد من أولى محاولات الشاعرة في كتابة الحكاية الشعرية، وأنها حاولت التركيز على إبراز المضمون الاجتماعي الإنساني على حساب البناء الفني وعناصره.

وتقدم الشاعرة نموذجاً إنسانياً ثالثاً تصور فيه المأساة وضخامتها وفداحة أهوالها، فتتألم لعيشة الذل والهوان التي يحياها اللاجئون في خيامهم البالية، ففي قصيدة" لاجئة في العيد"، تعرض مشهداً مأساوياً لما تعانيه لاجئة فلسطينية من شقاء وألم وحنين إلى الديار، في حين أن الفتيات من حولها يمرحن في حبور وسعادة والعيد يملأ الجو بالمرح تقول([18]):

أختاه هذا العيد رفّ سناه في روح الوجود

أختاه، هذا العيد رفَّ سناه في روح الوجودْ

وأشاع في قلب الحياة بشاشة الفجر السعيدْ

وأراك ما بين الخيام قبعتِ تمثالاً شقيًّـــا

متهالكاً، يطوي وراء جموده ألماً عتيّـــاً

يلحظ المتلقي أن الشاعرة جسدت أثر المأساة على اللاجئة التي تعد نموذجاً للاجئات الفلسطينيات، إذ تُشاركها همَّها ومأساتها، إن في استدعاء صورة الخيمة تجسيداً للمعاناة التي ذاقها المشرد الفلسطيني؛ لأنها تختصر النكبة وفقدان الوطن، وهي رمز للذل والعار والمهانة، وهول المأساة التي يعانيها تحت سمع العالم والضمير الإنساني.

لقد انشغلت الشاعرة في تصوير مشاعر اللاجئة، فهي تُصوِّرها تِمثالاً شقيا ، متهالكاً، يطوي وراء همومه الألم العتي، وهي صورة شعرية مستمدة من واقع المأساة التي عاشتها الشاعرة، ثم أخذت تُقارن بين ما تحياه تلك اللاجئة من ضياعٍ وتشتُّت. وما ينعم به المُترفون المُتنعِمون من أبناء شَعبها الذين انهمكوا باستقبال العيد دون أن يلتفِتوا إلى مأساتها، معلنة سخطها على المترفين الذين أصموا أسماعهم عن نداء الواجب، وتغافلوا عن مأساة هذه اللاجئة وشعبها. تقول في أبيات تتنزى بالألم والحسرة والغضب([19]):

أختاه، هذا العيد عيد المترفين الهانئِين

عيد الألى بقصورهم وبروجهم متنعمين

عيد الألى لا العار حرّكهم، ولا ذلّ المصيرْ

فكأنهم جثث هناك بلا حياة أو شعورْ

أختاه، لا تبكي، فهذا العيد عيد الميّتين!

وإلى جانب المعاناة الحسية التي تعرض إليها اللاجئ الفلسطيني من تشرد وفقر ومرض تأتي الآلام النفسية والمعنوية كأشد ألوان المعاناة، من طمس الهوية، وتجاهل مأساة الإنسان الفلسطيني كإنسان، وتجاهل قضيته وآلامه، تقول محاورة الرجل الانجليزي([20]):

وأنت يا جار الرضى من فتح الجراح؟

ذكرتني..

أني من الأرض التي تمزقت..

أني من القوم الذين..

من الجذور اقتلعوا، من الجذور..

وأصبحوا على مدارج الرياح..

مُبعثرين ها هنا وها هنا.. لا ينتمون إلى وطن.

صورت الشاعرة تجاهل العالم لهوية الإنسان الفلسطيني وذاتيته، فلجأت إلى تصوير مشاعرها الغاضبة الحزينة، ودهشتها من مدى سيطرة الدعاية الصهيونية على عقول الناس، وفي المقطع تعبير صادق وعميق عن ألم الشاعرة للتجاهل الذي أبدته تلك الشخصية الغربية، فبينت لسائلها أنها من فلسطين الممزقة ومن الشعب العربي الفلسطيني الذي اقتلع من جذوره؛ ليبعثر هنا وهناك في الشتات والمنافي دونما انتماء إلى وطن، وتبصر السائل أنها تبحث عن هويتها الحقيقية، تبحث عن ذاتها المسلوبة. وبذلك أكسبت الشاعرة شعرها نفساً تراجيديا وحساً عميقاً بمرارة الفلسطيني الضائع في الكون والمضيّع الهوية([21]).

تتجلى في هذه الأسطر قدرة الشاعرة الفنية في توظيف تقنية الحوار الدرامي كأداة من أدوات التعبير الشعرية، فقد استثمرت الحوار الدرامي؛ لتجسد الفكرة الأساسية في القصيدة، وتمكنت من نقلها بلغة سهلة بسيطة بعيدة عن الالتواء والتكلف قريبة في الوقت ذاته من لغة الحديث اليومي، كما طوعت الإيقاع النغمي المتمثل في المقاطع الموسيقية القصيرة لخدمة الحوار، كما أثارت في نفس القارئ مشاعر الرثاء" لجار الرضى" الإنسان الإنجليزي الذي كان سبب مأساة الشعب الفلسطيني ونكبته، والذي لا يدرك حقيقة المأساة؛ لأن عينيه معماة يغشاها الضباب بعد أن نجحت الدعاية الصهيونية في جعله يعيش في جهل وضباب، فلم يعد يرى من الحقائق إلا ما يريد له الصهاينة أن يراه.

وقد مالت الشاعرة إلى استثمار القيم الصوتية لاسيما التكرار النغمي لإحداث لون من التنغيم داخل السطر الشعري، يسهم في نقل تجربة الشاعرة، إذ إن تكرار دال "من الجذور" جاء لتوليد لون من ألوان التوازن

التنغيمي في السطر؛ الأمر الذي أثار في النفس الإحساس بهول المأساة وعظم الفاجعة، وعمل على إنتاج دلالات جديدة موحية بتجربتها الإنسانية.

المتأمل في المشاهد التي عرضتها الشاعرة لمعاناة اللاجئين وآلامهم، يجد أن المرأة المشردة قد حظيت باهتمام الشاعرة وعنايتها، وكان لها حضور واسع في تجربتها الشعرية، وفي هذا ما يشي إلى حرصها على تصوير ما كانت تعانيه المرأة الفلسطينية الطريدة من آلام بسبب التشريد والشتات، وأنها تحملت آلام النكبة، ومشت فوق جراحها، وعانت معاناة كبيرة من النكبة، وتعرضت للمهانة والذل بوصفها أماً وزوجة، فهي عنصر جوهري في تكوين الأسر المشردة المذعورة، يقع على كاهلها تبعات واسعة من تربية الأيتام بعد استشهاد الأزواج، والمرأة الشاعرة أكثر إحساساً بما يلحق أختها المرأة من ظلم وعذاب واضطهاد وعسف، واللافت في الشعر المبكر الذي كتبه الفلسطينيون حول النكبة واللاجئين، أن الخطاب الشعري فيه يتجه إلى الأخت الفلسطينية، وهي إعادة إنتاج لفكرة الثأر وإثارة الحمية من خلال الحرائر اللواتي يحرضن الفرسان على حماية الأرض والعرض، وإذا كان هذا الخطاب يتميز بالشجن والأسى، فإن فيه أملاً بالعودة مشوباً بالحزن الرخيم([22]) .

ثالثاً – المجازر والإرهاب الصهيوني:

صَوّرت الشاعرة المذابح والدمار والمجازر البشعة وفظائع الأعمال الوحشية التي ارتكبتها العصابات الصهيونية بحق أبناء شعبها المسالم الوادع بقصد إجباره على ترك أرضه، وإحلال الصهاينة الغرباء مكانه، وربما كانت الجرائم والفظائع الرهيبة التي اقترفتها العصابات الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني هي الدافع القوي الذي فجر في نفس الشاعرة ينابيع الشعر الوطني الإنساني، وحفزها على تجسيد مسيرة جهاد شعبها ومقاومتهم لهذا المحتل الغاصب([23]).

ففي قصيدتها(حلم الذكرى) التي أهدتها إلى روح أخيها إبراهيم واستلهمتها من وحي مجزرة "قبية"عام 1953 م، تقول بأسلوب وصفيٍّ عن آثار المجزرة ومظاهرها([24]):

وأبصرت أشلاء قومي هنا وهناك على طُرق السابلهْ

عُيون مُفقّأة بُعثِرت على الأرض حباتها السائله

وأيد مُقطَّعة ووجوه غزا التترب ألونها الحائره

وكان هناك وراء الدخان قطيع تشتت في كل بيد

قطيـــــــــــع وديـــــــــــع ... بقيــــــــــــة قومي فهذا شريـــــــــد وهذا طريــــــد

... قصـــــــارى مطامحـــــهم لقمـــــــــــة مغمسة بـــــــــــــهوان العبيــــد

تجــــــود بـــــــــها كف جلادهم لتخديـــــــــــــرهم كل صبــــــــــاح جديـــــد

تبدت في هذه الأبيات صور مأساوية للمجازر الوحشية التي اقترفها الصهاينة بحق اللاجئين الذين أصبحوا أشلاء مبعثرة، وطوردوا كالقطعان الضالة بعد أن اقتلعوا من أرضهم، ورصدت الأثر الذي أحدثته هذه الفظائع والدمار في بنية الشعب الفلسطيني.

أوحت هذه الصور الدموية بحجم المذبحة وهول المجزرة التي ارتكبت بحق أناس أبرياء من نساء وأطفال وشيوخ، وقد وظفت في رسم لوحتها الفنية أساليب تعبيرية متنوعة من: صور نابضة بالحياة، وألفاظ موحية مثل: أشلاء، عيون مفقأة، أيد مقطعة، وجوه معفرة، الدخان، القطيع، التشتت، الشريد، الطريد، وعمدت إلى رسم تفاصيل المشهد وجزئياته: عيون مُفقأة، وأيد مقطعة؛ ليكون التأثير في نفس المتلقي أعمق، وقد تآزرت الصور وتآلفت لتشكل لوحة ذات إيحاءات ثرة قادرة على تصوير بشاعة الجريمة وفظاظة المشهد، وجاءت الدوال في مجملها متماهية مع المغزى الكامن وراء هذه الدلالات الشعرية التي أرادت التعبير عنه.

وعلى الرغم من معاناة الشاعرة الذاتية التي تتمثل في فقد الأشقاء والأحبة، فإنها لم تنفصل عن معاناة الوطن وأبنائه، فمن وحي المجزرة التي اقترفت بحق التجمعات الفلسطينية للاجئين على يد النظام العربي في الأردن صورت الشاعرة مظاهر هذه المجازر بطريقة موحية مؤثرة، تقول عند حلول عام 1957م([25]):

كان شريراً، وكانت عينه تنضح قسوة

كرع اللذة من آلامنا

وأتى قتلا وتمزيقاٍ على أحلامنا،

وعلى أشلائنا نقّل خطوه.

تمزج الشاعرة في هذه الصورة المترعة بالألم والأسى مأساتها الإنسانية الذاتية بمآسي شعبها، إلى الحد الذي لا يستطيع فيه المتلقي أن يفصل بينهما، فالمتلقي لا يدري إذا ما كانت الشاعرة قي هذه القصيدة تحكي مأساة عام ضاع من حياتها أم تقص حكاية عام حافل بمآسي شعبها وأوصافه، والحقيقة إن جرح الشاعرة وجرح وطنها لا ينفصلان، وإنما يمتزجان في موقف شعري حي مثير، وبذلك تتعمق تجربتها الإنسانية، ويتماهى فيها الذاتي بالموضوعي والفردي بالجمعي، وهنا يكمن سر نضج تجربتها الشعرية واكتمالها.

ومن يدقق في ممارسات الكيان الفلسطيني وجرائمه تجاه اللاجئين المشردين، يجدها تنهض على سياسات مبنية على الموت والاغتيال لكل لاجئ يفكر في العودة إلى وطنه بأي وسيلة كانت سلمية أو مسلحة،

وقد صورت الشاعرة مشهداً للاجئ فلسطيني فكّر في العودة إلى وطنه، وتجاوز الحدود إلى قريته، فكان مصيره القتل، تقول([26]):

وكانت عيـــون العدو اللئيـــــم على خطوتين
رمته بنظرة حقد ونقمة كما يرشـــق المتوحش سهمه
ومزق جوف السكون المهيـــب صدى طلقتيـــــن
.....
بدا الفجر مرتعشاً بالندى يذر ذره في الربا والسفوح
ومرّ بطيء الخطى فوق أرضٍ مضخمة بنجيـــع نفوح
تلفّ ذراعين مشتاقتين على جسدٍ هامدٍ مستريـــــح

عمدت الشاعرة إلى استثمار تقنية الفراغ الطباعي(...) في وسط المقاطع؛ لما لها من دور مهم في جعل المتلقي يتابع الحدث وتطوره، وهي تقنية "تحفز المتلقي للمشاركة باجتهادات خاصة به ويعلن أن ثمة جزءاً يصعب البوح به وسكوتا عنه مما يعطي المتلقي فرصة لكي يتحرك تعبيريا لمعرفة النقص في كل سطر"([27]).

وحين خلع اللاجئون المشردون رداء الضعف الخوف والفزع، وقرروا العودة إلى وطنهم متخذين المقاومة والسلاح سبيلاً لاسترجاع وطنهم السليب، عبر وادي الأردن، وجدوا العدو المحتل يتربص بهم فيردي برصاصه عشرات الضحايا ممن كانوا يحاولون عبور النهر قتلى، تقول([28]):

الموت رابض على النهر

الموت رابض لكل من عبر.

إن الموت والقتل هي صنعة هذا المحتل، يجيدها ويتقنها، ذلك أنه يجتهد في القضاء على أي صلة أو رابط يربط الفلسطيني بأرضه ووطنه.

وقد حاولت الشاعرة أن ترصد المجازر البشعة التي ارتكبها الأخوة العرب بحق اللاجئين الفلسطينيين في أيلول الأسود عام 1970م، إذ إنه من المنطقي أن يمارس المحتلون نهج القتل وارتكاب الجرائم بحق الفلسطينيين، ولكن ليس من المنطقي أن تُقترف المجازر والمذابح بأيدي الأخوة العرب الذين يفترض أن يكونوا العضد المساند لاستعادة الوطن، فقد صورت الشاعرة مشهد الحرب التي شنها النظام الأردني بحق اللاجئين في المخيمات، فتقول([29]):

قابيل الأحمر منتصبٌ في كل مكان
قابيل يدقُّ على الأبواب/ على الشرفات/ على الجدران
يتسلّق يقفز يزحف ثعباناً ويفحُّ / بألف لسان
قابيل يعربد في الساحات / يلف يدور مع الإعصار، يسد/ مسالك
ويشرّع أبوابا لمهالك

يحمل في كفّيه غسول الدم / توابيت النيران
قابيل إله مجنون يحرق روما
والموت كبير يتنامى/ صفصافة بللورٍ أحمر
يسقيها القابع في (المخفر).

استغلت الشاعرة في هذا المشهد شخصية "قابيل" الدينية؛ لتعبر عن تجربتها الشعرية وتكسبها دلالات إيحائية معاصرة، فشخصية قابيل من الشخصيات الدينية المنبوذة التي ترمز لكل سفاح، وهي تجعل منها معادلاً تراثياً للخيانة الأخوية، وقد استُثمرت لتكون رمزاً للسلطات الأردنية التي ارتكبت جريمة القتل بحق أبناء الشعب الفلسطيني في مخيمات اللاجئين، وقد وظف اللون الأحمر وما يحمل من طاقات إيحائية غنية توحي بكثرة ما ارتكب قابيل من مجازر دموية.

حاولت الشاعرة أن تربط بين شخصية "قابيل" وشخصية تاريخية من التراث الإنساني ترمز لحب الدمار والجنون، إنها شخصية "نيرون" الذي أحرق روما المدينة الجميلة رمزاً لحب الدمار والجنون، "**قابيل إله مجنون يحرق روما**"، ويجيء توحيد الشاعرة بين الشخصيتين: "قابيل" و"نيرون" إثراء للتجربة، وتضميناً لأثرها في نفوس المتلقين، كما تماهت صورة قابيل مع صورة الثعبان ذي الهيئة المنكرة؛ لتوحي بالحقد والمكر والغدر.

ومن أبشع أساليب التنكيل والإرهاب التي مارستها العصابات الصهيونية جريمة نسف البيوت وتدميرها؛ بهدف إجبار أهلها على ترك الوطن والنزوح عنه، والانضمام إلى قوافل اللاجئين، وقد صورت الشاعرة ذلك في قصيدة " حمزة "([30]):

طوّق الجند حواشي الدار

والأفعى تلوت / وأتمت ببراعة /اكتمال الدائرة

وتعالت طرقات آمرة:

"اتركوا الدار" ! وجادوا بعطاء /ساعة أو بعض ساعة

وظفت الشاعرة ما تحمله الرموز الجزئية من طاقات إيحائية وإمكانات دلالية؛ لتثري المعنى وتعمقه في ذهن المتلقي، فشخصية حمزة ترمز للإنسان الفلسطيني الصامد في الأرض الفلسطينية المحتلة ضد محاولات اقتلاع المواطنين من أرضهم. ورمزت للعدو بصورة الأفعى؛ لتوحي بأفعالهم التي تتسم بالحنث والغدر والقتل، ولا يمكن النقاش معهم ولا يمكن العبث مع الحية؛ ولإبراز خطرها وسرعة زحفها، فهي تحفر القبور، وتنشر الموت، و تحمل معنى الامتداد والانتشار والزحف([31]).

إن التشبث بالأرض، والتعلق بها، والبقاء فوق ترابها هو الرد الطبيعي على محاولات العدو تفريغ الأرض من أصحابها تطبيقاً للحجة الصهيونية المزعومة" أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض"([32]).وقد

استثمرت القيم الصوتية لصوت التاء الذي تكرر غير مرة، هو صوت مهموس يوحي بالحركة البطيئة التي تحدث من تلوي الأفعى، وإحاطتها بالبيت؛ الأمر الذي يعمق أثر الجريمة التي اقترفت بحق حمزة وداره.

إن حمزة الإنسان القروي البسيط أقدر من غيره على اكتشاف سر الأرض؛ لشدة التصاقه بها، ومعايشته لها، وقد أحبته الأرض كما أحبها، وأفضت إليه بسرها الذي عجز الآخرون عن اكتشافه([33]).

إن البقاء في الوطن والانغراس في ترابه والتشبث بالأرض يقابل في رؤية الشاعرة الهجرة والرحيل عن الوطن، فقضية اللاجئين عندها مرتبطة بالأرض، ذلك أن العامل الأساسي للصراع بين العرب واليهود هو السيطرة على أكبر مساحة من الأرض وطرد أهلها، تقول مجسدة هذه الرؤية([34]).

هذه الأرض امرأة

في الأخاديد في الأرحام / سر الخصب واحد

قوة السر التي تنبت نخل/ وسنابل

تُنبت الشعب المقاتل.

حمزة اللاجئ الفلسطيني تهدمت داره بفعل الاحتلال فانضم إلى قافلة اللاجئين يبحث عن مأوى ولكنه لم يضعف أو يستسلم، بل ظل صامداً مرفوع الجبين، لم يغادر أرضه، عمدت الشاعرة إلى تصوير مشهد درامي مأساوي لهمجية الاحتلال وما يفعلونه بأرض فلسطين وأبنائها، فجسدت عملية هدم منزل حمزة وتشتيت أسرته.

يتجلى في هذا المقطع التلازم والامتزاج بين الإنسان الفلسطيني وأرضه للتعبير عن علاقة مستمرة غير منبتة، وكان هدف الصهاينة هزّ العلاقة بقتل الفلسطيني وتدمير بيته([35])، فأرض فلسطين في رؤية الشاعرة امرأة تلد المقاتلين هذه الأرض المباركة تنبت نخلا رمز الأصالة العربية، وسنابل رمز الخير وعيش الإنسان، "إن المرأة عند الشاعرة مساوية للأرض؛ لأن المرأة تلد، وكذا الأرض فهي رمز الخصب والعطاء"([36]).

إن اغتيال اللاجئ المشرد في المنافي وعلى أرصفة الغربة هو– في رؤية الشاعرة – عودة حقيقية لهذا الغائب الغريب إلى الوطن؛ من أجل أن يعانق الأرض، ويحتضن كل ذرة من ذراتها؛ ويفترش حقول القمح وبيارات البرتقال؛ ويعانق هامات جبلي:(عيبال)و(جرزيم) و(قبة الصخرة)، تقول الشاعرة في استشهاد الشهيد وائل زعيتر الذي اغتالته العصابات الصهيونية في إيطاليا([37]):

يا بعيداً، يا قريباً نمْ على الصدر الذي

يفتحه"عيبال" من أجلك، أسند

رأسك الشامخة اليوم إلى "القبة"

فالصخرة في القدس احتوتك الآن حين الموت أعطاك الحياة.

المتصفح لأشعار فدوى طوقان الأخيرة، يكتشف أنها لم تترك مناسبة إلا وتطرقت فيها إلى وحشية الاحتلال وأساليبه الدموية التي اقترفها بحق المشردين من أبناء شعبها الفلسطيني، ومنها أسلوب الاغتيال، إذ اغتال العدو المحتل ثلاثة من قادة الفلسطينيين في منازلهم في بيروت وهم: كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار، وقد رسمت لاستشهادهم صورة شعرية أثيرة، تقول([38]):

نسراً فنسراً غالهم وحشُ الظلام

سرقَ السمّو من الأعالي .. آه يا وطني

عليك من الدم الغالي سلام

من أجلك انفرطت عقود دمائهم

و حبّـــاتِ مرجانٍ، كنـــــوز لآلئٍ،

ذهب الذين نحبهم..

اقترنت صورة القادة في هذا النص بالنسور في الأعالي، والعدو جاء في صورة وحش في الظلام ، وقد عمّ الحزن والأسى بموتهم، وتماهت صورة مصارعهم مع كلمات الرثاء اللازمة" ذهب الذين نحبهم " حيث استدعت الشاعرة الموروث الشعري صوت عمرو بن معدي يكرب، وهو صوت يشعر بالفقد وبالقوة معاً، يقول الشاعر(39):

ذهب الذين أحبـــــهم وبقيت مثل السيف فردا

إن استحضار هذا البيت من الذاكرة يعكس الشعور بالحزن والأسى والضيق الذي سيطر على روح الشاعرة لرحيل هؤلاء الشهداء واغتيالهم. فقد جاء استدعاؤها للنص الغائب؛ ليعبر عن الإحساس بالفقد، غير أن ثمة فرقاً بين إحساس الشاعرين، فإحساس الشاعر الجاهلي ورد ليعبر عن إحساس فردي ذاتي بالفقد والخسارة، بينما عبرت الشاعرة عن إحساس جماعي؛ لما يمثله افتقاد هؤلاء الشهداء من خسارة فادحة على مستوى الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية. بيد أن الأمر في رؤية الشاعرة لا يتوقف عند هؤلاء الشهداء الثلاثة الذي امتدت إليهم يد الغدر قي بيروت سنة 1972م، وإنما هي صورة من صور القتل الذي يمارس على أبناء الشعب الفلسطيني منذ أكثر من نصف قرن وإلى اليوم(40).

والواقع إن مَنْ كان ذا معرفة بفلسطين ونضال شعبها وصراعها مع الاحتلال الصهيوني، سينصرف ذهنه إلى تذكر شهداء فلسطين من المشردين عن أوطانهم، والذين سقطوا دفاعاً عن الأرض والمقدسات، وينصرف ذهنه أيضاً إلى تحديد فضاء الاستشهاد على أنه ليس فوق تراب فلسطين المحتلة، وإنما في أرض الشتات والمنافي في بيروت، وفي هذا ما يعمق من حجم المأساة، وهول المصاب، ويزيد من وقعه في وجدان المتلقي، فيشارك هؤلاء المشردين مصيبتهم الفاجعة، وفقدهم المؤلم.

استثمرت الشاعرة الطاقات النغمية التي تمتلكها القافية، فنوعت في قوافيها؛ الأمر الذي أكسب المقطع إيقاعات مختلفة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحركة النفس وتموجاتها وبحركة الانفعال وذبذبته وتناسبت مع البناء الدرامي القصيدة، إذ أصبح التنويع في القافية جزءاً من الإيقاع الكلي للقصيدة.

رابعاً – الحنين والذكريات وهاجس العودة إلى الوطن:

الحنين عاطفة إنسانية أصيلة، فما من إنسان إلا ويحن إلى ديار بلاده إذا ما ابتعد عنها أو غاب، ويزداد الحنين عند الفلسطيني شدة؛ لأنه الإنسان الوحيد الذي لا يستطيع العودة إلى دياره، لقد طُرد من أرضه وديارة، وجاء قوم آخرون غرباء وسكنوا مكانه، ولجأ هو إلى معسكرات اللاجئين في الوطن وخارجه.

ومن يراجع ما كتبه الشعراء الفلسطينيون، يجد أن الحنين الدائم إلى الوطن غدا ملمحاً بارزاً من الملامح التي تتسم بها شخصية اللاجئ، فبقاء اللاجئ في أرض الشتات والمنافي أشعل في قلبه نيران الشوق الجارف، وأضحى هاجس العودة وتراً يعزف عليه آلامه وأشواقه إلى وطنه، وأصبح الوقوف على أطلال الديار ومغانيها التي أراد العدو تدميرها وطمس معالمها معلماً رئيساً من معالم شخصية هذا اللاجئ([41]).

لم تقف الشاعرة عند رصد المعاناة والمجازر التي ارتكبت بحق أبناء شعبها وتصويرها، وإنما راحت تجسد شوق اللاجئين وحنينهم إلى الوطن والعودة إلى ثراه وأرضه. فما زالت ذكريات الوطن ماثلة أمام أعينهم، ساكنة في قلوبهم، إنهم يحفظون معالم الوطن قراه ومدنه، شواطئه ووديانه، بياراته وصحاريه وكرومه وشوارعه لا يصمتون بعد النكبة عن وصف مغانيه.

ففي قصيدة (نداء الأرض) تعرض الشاعرة صورة للاجئ فلسطيني اشتدّ به الحنين والشوق إلى وطنه، فأخذ يتذكر أرضه ويتمثلها، وهي تفور في الربيع، فيهيجه الحنين إلى العودة، وتغلي الفكرة في رأسه، فيتوجه في إحدى الليالي إلى أرضه غير عابئ بالحدود ، يعانق أشجارها ويشتم ثراها ، ويقبّل ترابها، ولكن العدو المجرم يصرعه قبل مطلع الصباح([42]):

في ليلة من ليالي الربيع الدفيئـــــــــة

مشى ذاهل الخطو تحت النجوم المضيئة

وراح يدور بأفق خواطـــــره الشاردات

يلاحقهن ويُمعن بعداً مع الذكريـــــــات

ويبصر يافا جمالاً يضيء على الشاطئ

ويسمع غمغمة الموج في بحرها الدافئ

ويلمح بالوهم طيف القوارب والأشرعـــة

تقبّل وجه الصفاء في الزرقة المترعـــــة

ومرت على وجهه وهو يحلم نسمـــــــــة

مضمخة بشذى البـــــــرتقال تعطّر حلمه

رسمت الشاعرة في هذا المشهد قصة اللقاء السعيد بين اللاجئ المشرد وأرضه، ولكنها قصة تنتهي بإطلاق العدو المتوحش الرصاص ليقضي على فرحته بمناجاة أرضه، استغلت دوال الطبيعة من: أشجار وسنابل وربيع وبحر وشاطئ؛ لكونها عناصر من طبيعة فلسطين عرفها اللاجئ، وافتقدها في مهجره القسري، وقد غدت عناصر الطبيعة مادة خصبة ينهل منها اللاجئ ذكرياته، إنها تذكره بأرضه وتقوي علاقته بها وارتباطه بترابها، إنه يصر على العودة إلى الوطن، فإن لم يستطع تحقيق عودته على أرض الواقع، فإنه يحرص على تحقيقها بالحلم والخيال([43]).

اكتسبت تجربة الشاعرة فدوى طوقان الوطنية قيمتها من قدرتها على التنبؤ واستشراف المستقبل، وغرس أمل العودة في نفس الشعب الفلسطيني، فصورت عودة اللاجئ إلى أرضه عودة سلمية، وقد دفع حياته ثمناً لحب الأرض، فكانت صورة هذا اللاجئ البطل "هي الحنين الحقيقي لصورة الفدائي بعد نكبة حزيران"([44]).

وعلى الرغم من أن عودة اللاجئ المشرد إلى أرضه كانت عودة سليمة، بدون سلاح، فإن هذه العودة تُعيّن تاريخاً بدأ يتململ فيه الفلسطينيون، ويصحون من الضربة القاصمة التي حلّت بحياتهم([45]).

وفي موضع آخر من خطابها الشعري تصور الشاعرة شوق الفلسطيني وحنينه الدافق إلى موطنه الذي طرده منه العدو المحتل، تقول في قصيدتها" لن أبكي" التي أهدتها إلى شعراء المقاومة في الأرض المحتلة سنة 1968 م في حيفا إثر تمكنها من زيارتها بعد الاحتلال الإسرائيلي لبقية فلسطين([46]):

على أبوابِ يافا يا أحِبائي

وفي فوضى حُطامِ الدُّورِ ، بين الرَّدْمِ والشَّوْكِ

وقفْتُ وقلتُ للعينين/ : يا عينين قِفا نبكِ

على أطلالِ مَنْ رحلوا وفاتوها

تُنادي مَنْ بناها الدارْ

وتَنعى مَنْ بناها الدارْ

وأنَّ القلبُ مُنسحقاً/ وقال القلبُ :

ما فَعَلَتْ بِكِ الأيامُ يا دارُ ؟

وأينَ القاطنونَ هُنا ؟ / وهلْ جاءَتْكِ بعدَ النأي، هل جاءَتْكِ أخبارُ ؟

وقفت الشاعرة على أطلال مدينة يافا التي هجرها أهلها منذ النكبة الأولى 1948 م بين البيوت التي هدمت والأشواك التي نبتت بين الردم عندها، مُستحضرة وقوف الجاهليين على أطلالهم: لغةً ومضموناً، والمتمثل في مطلع معلقة امرئ القيس التي يقول فيها([47]):

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وعلى الرغم من أن كلا الشاعرين يقف على بقايا الأحبة الذين رحلوا، فإن المتلقي يلحظ فرقاً بين الوقفتين، فقد وقف الجاهليون على أطلال أحبتهم الذين رحلوا طلبا للكلأ والماء، أو سعيا للرفعة والمجد، وقلما كان رحيلهم هروباً من عدو أو نتيجة لمعركة هزموا فيها، كما حدث للفلسطينيين، وكما جاءت لُغة الشاعرة مُستقاة من المعجم الدلالي للغة الشعراء الجاهليين، فإنها استلهمت أيضاً تجربة شعراء الأندلس الذين بكوا بكاء مراً ما ضاع من مدنهم التي سقطت في أيدي الصليبيين الأسبان، وتفجعوا على ضياعها تفجعاً حاراً.

اختارت الشاعرة أشهر المدن الفلسطينية على شاطئ البحر المتوسط وهي مدينة" يافا" المعروفة بحدائق البرتقال؛ لتجعلها مدخلاً للكلام عن القضية الفلسطينية، ومدنها التي ضاعت، وطرد أهلها، فأخذت تبكي هذه المدينة وأهلها الذين شردهم العدوان الصهيوني والانهيار العربي، وأجبروا على تركها ما بين قتيل وطريد.

صَوّرت الشاعرة في هذا المشهد صورةَ الفلسطيني الذي ظل في ترحاله وظعنه يجتر ذكريات وطنه الذي طرد منه، وسكنه أقوام غرباء فلم يعد يملك إلا الوقوف على الأطلال، ونعي أهل الدار، وذم الأيام وصروف الدهر، وجاء التصوير بلغة سهلة واضحة وعاطفة رقيقة مشعة؛ ليكون أقوى تعبيراً عن الإحساس بالفقد.

توسلت الشاعرة للتعبير عن حالتها الشعورية الإيقاع النغمي الذي أدى دوره في التجسيد الحي لأحاسيسها المفجوعة في وطنها، فاستثمرت الإمكانات الصوتية للمدات الطويلة في ألفاظ(أبواب، يافا، يا أحبائي فوضى، حطام)؛ لتكون وسيلة تنفيس عن عواطفها المكبوتة ،وتصبغ الإيقاع بصبغة حزينة ملتاعة، واستغلت أيضاً ما يكنزه حرفا (القاف– الكاف)، وهما ذا إيقاع صاخب يشبه الطرق، طرق أبواب من ناموا عن الحق العربي وتطلب من كل إنسان أن يستنقذها، فضلاً عن استخدام الأصوات اللينة الرقيقة الهامسة التي تناسب صوت الدمع مثل صوت النون الذي يعبر عن الحزن والنواح، وصوت "الدال" الرخو الذي يتساوق مع قطرات الدمع.

وفي لوحة مترعة بالحزن والألم والذكريات، تصور الشاعر موقف الفلسطيني من أرضه التي هُجّر عنها، إنها تقف لتبكي شعباً بأسره يُرحّل عن وطنه قسراً ثم يُرحّل ويُرحّل، ويترك دوره أطلالاً يقطنها الغرباء الغزاة بعد أن انقطعت أخبار بناة الدور، وأصحاب البساتين والقصور([48]):

هُنا كانوا ، هُنا حلموا

هُنا رَسموا مشاريعَ الغدِ الآتي

فأينَ الحُلْمُ والآتي ؟ وأيْنَ هُمُو ؟

وأيْنَ هُمُو ؟

إن إنعام النظر في الأشعار التي صورت فيها اللاجئين المشردين، تهدي إلى القول بأن الحنين إلى مدن فلسطين والشوق العارم إلى أهلها لا يفارق الفلسطيني في حياة التشرد والنفي، وهل ينسى الإنسان مباهج العيد في المدينة؟ وهل يغيب عن ناظريه ذلك المنظر الذي اعتاد أن يرى الحساسين تغرد والأطفال تمرح وتلعب؟

وفي المنفى حيث الحنين الجارف إلى الوطن، تتطلع لاجئة فلسطينية في العيد إلى كل ما يعيد لها الذكريات الجميلة عن وطنها، إنها تريد الهروب من واقع أليم ترزح تحت نيره، كما تستعيد الشاعرة مع اللاجئة ذكريات العيد في يافا حيث مظاهر الفرح المُعتادة، تقول الشاعرة مخاطبة تلك اللاجئة([49]):

أتــرى ذكرت مباهج العيـــد في (يافا) الجميـــــــلة؟

أهفت بقلبك ذكـــريات الــعـيـــد أيـــام الطـــفـــولة؟

إذ أنت كالحسون تنطلقيــــــــن في زهو غريــــــــــرِ

والعقدة الحمــــــــــــراء قد رفّت على الرأس الصغيـــر

إذ أنت تنطــلقـــين بــيــن ملاعــب البــلــد الحــبـــيــب

تتراكضيـــــن مع اللذات بموكب فـــــــــرح طــــروب

سجلت الشاعرة حياة اللاجئة إذا ما أقبل العيد، وصورت مدى المعاناة والشقاء الذي يظلل الحياة بعد الإبعاد عن الوطن، وأصبح العيد لا يحمل مع مجيئه إلا الأسى والذكريات، ولم يعد أمام اللاجئ سوى ذكرياته يلجأ إليها يستقي منها دفقة أمل، علّها تخفف من جرح الروح الذي خلفته النكبة. تحن اللاجئة لتلك الأيام الخوالي في يافا السليبة حيث كانت تبتهج بالعيد في بلادها وبين أهلها.

وتُقارن الشاعرة بين ما تحياه تلك اللاجئة من ضياعٍ وتشتُّت، وما ينعم به المُترفون المُتنعِمون من أبناء شَعبها الذين انهمكوا باستقبال العيد دون أن يلتفِتوا إلى مأساة تلك اللاجئة([50]):

واليوم ماذا الــــيوم غـــيـــر الذكـــريـــات ونـــــارهـــــا

واليوم مـــاذا غــــيـــر قصـــة بـــؤ سـكُـــــن وعـــارهـــا

اعتمدت الشاعرة على تقنية المفارقة التي تقوم على إبراز التناقض بين حالتين متناقضتين، يقف الطرف الأول فيها صورة اللاجئة في العيد في وطنها والذي يستثير شجونها ويذكرها بعالمها الأسري، وهو فضاء للبهجة، والسعادة الغامرة، والحياة الهانئة التي كانت تحيا فيها، أما الطرف الثاني للمفارقة، فهو وضع اللاجئة وحياتها بعد حدوث المأساة والتشرد والضياع وحياة الخيام التي أصبحت تحيا فيها. إنها تعيش حياة البؤس والشقاء، حيث الألم والعذاب، ويزيدها قدوم العيد مرارة، فتحزن وتشتاق إلى من يمسح دمعتها المريرة.

ولا شك في أن مثل هذه المفارقة التي أنتجها السياق اللغوي تثري الخطاب، وتجعله قادراً على التأثير في الذات المتلقية وتخلق فيها نوعاً من الإثارة النفسية، وتحفزها إلى تقديم يد المساعدة لإنقاذ هذه اللاجئة والعمل على عودتها إلى وطنها.

استعانت الشاعرة أيضاً في تجسيد مشاعر الشوق والحنين بالصور الفنية، فرسمت صوراً ساحرة جميلة من ذلك قولها:"أنت كالحسون" في جمال ألوانه، وحرية انتقاله في سعادة، فجاءت صوراً مترعة بالجمال والروعة ، تمثل طفولة اللاجئة في جمالها وبراءتها وفرحها ومرحها.

وجاء الاتّكاء قوياً على اختيار الألفاظ ذات الدلالات الموحية في رسم صورها المتسقة مع السياق الذي عبرت فيه عنه الحياة السعيدة التي كانت تحياها هذه الطفلة، وحنينها الجارف إلى تلك الأيام مثل: مباهج أعياد. رسمت صوراً حية نابضة بالحياة والحيوية تآزرت فيما بينها لتشكل لوحة ساحرة جميلة لروعة الحياة في فلسطين، وحنين تلك المرأة وشوقها لتلك الحياة، وبقاء الذكريات حية في قلبها ووجدانها.

استثمرت الشاعرة الأسلوب القصصي وتقنياته في بناء قصيدتها وتطوير أحداثها مثل: أسلوب الارتداد والحوار الداخلي، فقد انتقلت بطلة القصة من الواقع إلى الماضي إلى عالم الذكريات فيما يشبه الحلم، حيث تخيلت دارها وقريتها وملاعب الصبا وظلة الياسمين، وظلة الدالية([51]):

وفي مثل تهويمة الحالمين وغيبوبة الأنفس الصافية
أطلّت على أفق الذكريات وفي عمقها لهفة ظاميـــة
تعانق بالروح طيف الديار وتلثم تربتها الزاكيـــــة..
وتبصر في سبحات الخيال ملاعبها الرحبة الحانيـــــة
وأفياءها الدافئات وتلك الدهاليز في الروضة الحالية

وعلى الرغم من أن فترة اللجوء قد طالت، وخابت آمال اللاجئين في عودة سريعة إلى أرض الوطن، وتعمقت آلامهم ومعاناتهم في المنافي والشتات، فإن الحنين والشوق إلى الوطن لم يفارقهم، وأن الأمل في العودة لم تخبُ جذوته. فقد صورت الشاعرة في غير مكان من شعرها حنين اللاجئ إلى مدن الوطن السليب، فأخذت تذكر يافا وحيفا وبيسان والقدس، وطوباس، وغيرها من المدن، وجسدت شوقه العارم إليها، إنه يشتاق لعودة هذه المدن إلى عروبتها وإلى أهلها الفلسطينيين الأصليين وتخليصها من براثن الاحتلال الصهيوني الجاثم على صدورهن ليل نهار([52]).

الله يا بيسان!/ كانت لنا أرض هناك،

بيّارة، حقول قمح ترتمي مد البصر

تعطي أبي خيراتها / القمح والثمرْ/ كان أبي يحبها يحبها.

استمدت الشاعرة مفردات خطابها الشعري وتراكيبه من الواقع اليومي للشعب الفلسطيني، وصاغتها بلغة حياته اليومية، وقد استخدمت لفظة (بيّارة)، وهي لهجة فلسطينية محلية ، وأدخلتها في سياق شعري

أكسبها دلالات شعرية موحية ، فأخذت تشع في مكانها في النسيج اللغوي معاني وأحاسيس ثرة، وأثارت ذكريات وشجوناً وحزناً جعلت المتلقي يتساءل بحيرة أين هي بياراتنا؟ هل ستعود يوماً؟، فيزداد ارتباطه بالأرض، وتصميمه على تحريرها.

إن المعاناة وآلام التشرد والعيش في المخيمات البالية والمعاملة السيئة التي لقيها اللاجئون في مخيمات الشتات قد جعلت الحنين إلى العودة في حنايا اللاجئ جارفاً، والشوق إلى دياره قوياً، إنه يقرر العودة إلى وطنه ولو كلفه ذلك حياته([53]):

أتغصب أرضي؟ أيسلب حقي وأبقى أنـــــا

حليف التشرد أصحب ذلة عاري هنـــــــا؟

أأبقى هنا لأموت غريباً بأرض غريبـــــة؟

أأبقى ومن قالها؟ سأعود لأرضي الحبيبة

بلى سأعود، هناك سيطوف كتاب حياتي

سيحفر على ثراها الكريم ويؤوي رفاتي

سأرجع لا بد من عودتي

سأرجع مهما بدت محنتي

وقصة عاري بغير نهاية

سأنهي بنفسي هذه الرواية

فلا بـــــد لا بــد من عودتي.

صورت الشاعرة مشاعر القلق والغربة التي كانت تعتمل داخل هذا اللاجئ المشرد، ومع ذلك فإن الأمل في العودة ما زال حلماً يراوده، ويسيطر على نفسه وفكره، وقد سعت للتعبير عن هذه المشاعر إلى استغلال القيم النغمية المنبعثة تكرار بعض الجمل والعبارات" سأرجع لا بد من عودتي"، التي اتخذت منها نقطة ارتكاز لتصوير حالة اللاجئ النفسية وتأزمه من المحن والأزمات التي حلت به وجعلته يردد هذه العبارة؛ وهكذا تجلت وظيفة الحوار الداخلي في رسم أبعاد شخصية اللاجئ من الداخل، بحيث تناسق الحوار مع الحالة النفسية لتلك الشخصية، وما تشعر به من قلق وحصار واضطراب، إلى جانب كشفه للبعد النفسي للشخصية وصراعها الداخلي الذي يأتي موازياً لما يحدث في الخارج، ويبدو أن الشاعرة قد وجدت في أسلوب

الحوار الداخلي عوناً لها في بناء خطابها الشعري بناء سرديا، وذلك لأن الحوار" يوضح أبعاد القضية المطروحة أو الموضوع المثار على نحو يزيده ثراء وتكثيفاً([54]).

عمدت الشاعرة إلى استثمار الإمكانات النغمية لصوت الراء، وهو من الأصوات الذلقية اللثوية التي تخرج من طرف اللسان، والذي يحمل دلالة الاضطراب والقلق والثورة والألم الذي يعانيه هذا اللاجئ، واستغلت الشاعرة أيضاً الحوار الدرامي، حيث دخلت شخصية البطل في حوار داخلي جسد الحدث القصصي، وأسهم في نمو الحركة الداخلية للنص الشعري، وأعطاه بعداً درامياً مؤثراً.

وقد استدعى هذا الموقف لغة إنشائية قائمة على استخدام أسلوب الاستفهام الذي يتجاوز معناه النحوي اللغوي العادي إلى معان أخرى أبعد، يكتسب من خلالها دلالات جديدة في سياق تجربة الشاعرة الإنسانية، فالإلحاح على استخدام أسلوب الاستفهام في موقف الدهشة والاستنكار والاستغراب يعكس توتر اللاجئ وحيرته وقلقه واضطرابه، ويجسد ما يعتصر قلبه من مشاعر مشحونة بالألم والحسرة والقلق، وبذلك يساهم هذا الأسلوب في تعميق المجرى الدلالي، وتركيز التجربة، فضلاً عن مساهمته في نفي الرتابة عن الأبيات، وإكسابها غنائية عالية، وتوفير عنصر التأثير في الذات المتلقية.

وعلى الرغم من استخدام شخصية اللاجئ في حوارها الداخلي للصور الشعرية الموحية في التعبير عن أحاسيسها ورؤاها بداية الحوار، فقد تسربت إلى النص نبرة خطابية تقريرية لاسيما في الأسطر الأخيرة؛ الأمر الذي جعل المتلقي يحس أن الشخصية تتوجه إليه مباشرة؛ الأمر الذي أفقد الحوار قدرته على التأثير والإيحاء بأسلوب أعمق.

خامساً – الحث والتحريض:

لا شك في أن الشاعر في كل زمان ومكان هو مشعل حرية ومصباح تنوير؛ لما أتاه الله من بصيرة مستنيرة، وقدرة على إدراك حقائق الأمور، وكشف أغوار الواقع وسبرها، ومنحه موهبة قادرة على الإبداع والخلق.

لم تقف الشاعرة عند رصد المعاناة والآلام والأوصاف في حياة اللاجئين، وإنما أدركت المسئولية الملقاة على عاتقها في تحريض اللاجئين على مقاومة المحتل، والدعوة للتشبث بالأرض، وبث الأمل والروح في نفوس اللاجئين في العودة إلى أرض الوطن، إن رسالتها كشاعرة تنطلق من مشاركتها المجتمع مشاركة صحيحة وفاعلة، تنطلق فيها من رؤية واقعية شاملة، تستوحي عناصرها من روح الشعب، ومن ثمرة إحساسها ونتيجة تفكيرها، تقول في وصفها لإحدى المشردات الفلسطينيات وابنها اليتيم([55]):

تململ في حضنها فرخها فضمّته محمومة ثائره

ومالت عليه وفي صدرها مشاعر وحشية هادره

لترضعه من لظى حقدها ونار ضغائنها الغائره

جسدت الشاعرة في هذا المقطع ما يعتمل في نفس الفلسطيني المشرد من حقد وكراهية على ذلك العدو الذي جعل الأم أرملة والابن البريء يتيماً، ولم يكن هذا الحقد إلا ردّة فعل مشروع، واعتمال لمشاعر الأخذ بالثأر واستعادة الوطن السليب، ذلك أن المشرد الفلسطيني برغم فداحة المأساة وعظم المصاب، لم تكن مُمارسته النضالية في يوم من الأيام ذات حقد أعمى، وأنه لو قُدِّر له أن يستعيد حقوقه، ويسترجع وطنه دون أن يُريق قطرة دمٍ واحدة لما قصَّر عن ذلك.

وفي موطن آخر جسدت الشاعرة صورة اللاجئين وهم يواجهون الهجمة الصهيونية، وقد سقط منهم كثير من الشهداء في إبان طردهم عن ديارهم وبيوتهم عام 1948م. ففي لوحة إنسانية رسمت صورة إحدى المشردات وهي تتذكر ذلك اليوم الأسود يوم الخروج والتشريد والفقد، فقد الوطن والزوج، تقول في قصيدة رقية([56]):

وطالعها في رؤى الذكريات فتاها نجيّ العلي والطمـــــاح
إباء الرجولة في بردتيـــه وزهو البطولة ملء الوشـــاح
يشدّ على الغاضب المستبد ويضرب دون الحمى المستباح
فيا من رأى النسر تجتاحه وتلوي به بفتات الريـــــــاح
تهاوى صريـــــــــعاً وأرخى على حطام أمانيـــــــه ريش الجنـــــــــــــــاح

المتأمل في النص السابق، يدرك أن رسالة الشاعرة تمثلت في دحضّ ادعاء الصهاينة بأن الفلسطينيين اللاجئين تركوا أرضهم وديارهم بمحض إرادتهم ورغبتهم، دون قتال أو دفاع، بيد أن الحقيقة التي لا تقبل جدال أن اللاجئين قاوموا ما استطاعوا، وشردوا غير مرة داخل وطنهم، إلى أن ألقت بهم قوة الصهاينة الغاشمة إلى المنافي والشتات، فاقترنت في هذا المشهد" صورة الشهيد بعنفوان النسر، واجتمعت فيه صفات من الفروسية المجيدة في نبل الكفاح والإباء، وإجابة الداعي، وفداء الحمى، وفي ظل واقع التشرد صار على المرأة اللاجئة مواجهة الواقع الجديد القاسي فصار المخيم مصنع الرجال الذين لا يديرون ظهورهم للوطن وتشاركهم المرأة في ذلك"([57]).

وعلى الرغم من الهزائم والإحباطات التي حلت بالعرب في تاريخهم المعاصر، وخلفت في بعض النفوس الضعيفة شيئاً من اليأس والإحباط والقنوط، وفقدان الثقة والأمل، فإن الشاعرة كانت لها رؤية مخالفة لذلك الموقف، فهي لم تتشاءم، ولم تفقد الأمل في قدرة أمتها على النهوض من هذه الكبوة، وظلت متفائلة

بالنصر القريب الذي سيحققه شباب المقاومة الفلسطينية البواسل، إنها تخاطب وطنها بعد حدوث النكبة الأولى عام 1948 م قائلة([58]):

ستنجلي الغمرة يا موطني ويمسح الفجر غواشي الظلم

والأمل الظامئ مهما ذوى لسوف يروى بلهيـــــب ودم

فالجوهر الكامن في أمتـــي ما يأتي يحمل معنى الضرم

هو الشباب الحر ذخر الحمى اليقظ المستـــــوفر المنتقم

لن يقعد الأحرار عن ثأرهم وفي دم الأحرار تغلي النـــقم

جسدت الشاعرة في هذه الأبيات تصميم اللاجئين الفلسطينيين على الثأر لوطنهم في صور شعرية موحية، موظفة بعض الدال التي تكتنز بطاقات إيحائية غنية مثل: الفجر، والأمل، ومن هنا تكمن روعة الصورة الشعرية" بما فيها من تفاؤل وأمل في المستقبل، حيث يشرق الأمل، ويتبدد اليأس، ويضيء الغد، علاوة على روعة خيال الشاعرة في الصورة، ودقة اختيارها للألفاظ"([59]).

وتعود الشاعرة في موطن آخر من شعرها؛ لترسخ في ذهن المتلقي قيمة الأمل الذي ينبثق من دال "الفجر"، فقد عبرت عن تفجعها وألمها لمأساة استشهاد أبناء شعبها من المنفيين المشردين من أمثال:(الكماليين والنجار)، إذ تقول متأوهة([60]):

أواه يا وطني الحزين

كم ذا شربتَ وكم شربنا

في مهرجانات الأسى والموت كاسات العصير المر

لا أنتَ ارتويتَ ولا ارتوينا.

إنا سنبقى ظامئين/ عند الينابيع الحزينة سوف نبقى / ظامئين

حتى قيامتهم مع الفجر الذي/ حضنوه لا تموت ولا يذوب لها حنين.

عبرت الشاعرة عن إصرار الفلسطيني على مواصلة الطريق حتى الوصول إلى إحقاق الحق في الحياة والوجود بلغة شفيفة محملة بدلالات غنية بالمعاني، وصور شعرية مترعة بالإيحاءات، وإيقاع نغمي حزين، وعلى الرغم من هذا الإيقاع الحزين، فالشاعرة لا تلبث أن تتحد – حتى وهي داخل بوتقة "الرحيل"– مع رؤيا الفجر، وقيامة الفرسان، ولا تلبث أن تسترد القدرة على المسير، ومواصلة الطريق، حتى صيرورة الغد الآتي، والفجر الذي يلوح في الأفق...إنها القيامة التي ستأتي بالأمن والعزة والحب والسلام([61]).

وفي قصيدة أخرى تتساءل الشاعرة في مرارة وألم عمن يثأر لكرامة اللاجئ المهدورة، فلم تجد سوى الجيل الصاعد من أبناء شعبها، تقول([62]):

متى يشتفي الثأر؟ يا للضحايا أتهدر تلك الدماء الطاهره

ويا للحمى! من يجيــب النداء نداء جراحاتـــــه النافره

وظلت الشاعرة– انطلاقها من رسالتها السامية – تحرض اللاجئ الفلسطيني وتحثه على مقاومة المحتل، وتستصرخ أبناء العروبة وتستنهض هممهم لنصرة شعبها، والانتقام من القتلة الذين استباحوا الوطن وقتلوا أبناءه([63]):

آه ، وامعتصماه !

آه يا ثار العشيره

وبرغم الأسى واشتداد الألم والمعاناة النفسية وتزايد الهموم والمحن، فإن اللاجئ انطلاقاً من رؤية الشاعرة الإنسانية لم ييأس، ولم يسيطر عليه الحزن والكآبة، إنه لم يفقد الأمل في العودة إلى الوطن، فالغد محمل بالنصر والأمل، لقد رفضّ الهزيمة، ودعا للمقاومة والنضال والثورة على الظلم والطغيان من أجل طرد المحتل وتحرير البلاد. ومن هنا فإن الشاعرة بعد النكسة عام 1976 م تتطلع إلى ميلاد جديد، ويقظة عربية تبشر بالنصر وعودة الحياة إلى اللاجئين من أهل فلسطين([64]):

ستقوم الشجرة

ستقوم الشجرة والأغصان

ستنمو في الِشمس وتخضر

وستورق ضحكات الشجرة في وجه الشمس

وسيأتي الطير.لابُدّ سيأتي الطير.. سيأتي الطير

تنهض القصيدة برمتها على فكرة محورية هي الصراع بين الخير والشر، بين الحق والباطل، وقد لجأت الشاعرة للتعبير عن هذه القيمة إلى توظيف الرمز الذي يرتكز على رمزين أساسيين هما الطوفان رمز لقوى العدوان والاحتلال الصهيوني، والشجرة رمز للأمة العربية، ويدور الصراع بين الطوفان والشجرة وتنتصر الشجرة في نهاية المطاف، وتصمد أمام الطوفان، وتعود إليها الحياة من جديد، وقد تضافر الرمزان الجزئيان في هذه القصيدة لتدعيم بناء الصورة الكلية ، وتآزرت مع بقية أدوات التعبير الأخرى من صور ولغة مفعمة بالإيحاءات، كما أسهم إيقاع بحر المتدارك ذي النغمات السريعة في سرعة قيام الشجرة ونموها وسرعة عودة الطير إليها، فضلاً عن إسهام التقنيات الأخرى من تكرار وحوار ومفارقات تصويرية في تأكيد رفض فكرة الاحتلال وتحديه وفي إبراز روح التفاؤل والأمل بالنصر.

أدركت الشاعرة من خلال تجربتها المريرة مع المحتل الغاصب، ومن خلال خبرتها العميقة بتجربة شعبها المكافح المناضل؛ أن عودة اللاجئين إلى ديارهم لن تكون إلا باستمرار الكفاح والنضال، وأن طرد هذا العدو واسترداد المقدسات وتطهيرها لن يتأتى إلا عن طريق المقاومة والجهاد، وقد عبرت عن رؤيتها هذه بطريق موح شفيف غني بالدلالات الخصبة، تقول مخاطبة طفلين لاجئين في الضفة الشرقية – وهما رمز جيل

المستقبل من الشباب–، وهما اللذان سيحملان عبء تحرير الوطن، ويأخذان دورهما في قصة الكفاح الطويلة؛ لتخليص الوطن من دنس المحتلين، ([65]):

طويلةٌ قصتُنا / طويلةٌ / حكايةُ الكفاح

ويومها يا كنزنا المنذور/ ستعرفون

متى وأين يلتقي المشتتونْ

وكيف تنتهي حكاية الشتاتِ / والضياعْ.

الدارس المتفحص لصورة اللاجئ في تجربة الشاعرة فدوى طوقان يرصد تطوراً واضحاً في رؤيتها الشعرية، وفي طرائق بناء صورها الشعرية، فقد تطورت تلك الرؤية وأصبحت أكثر عمقاً وتوهجاً، إذ اختفت في أشعارها صورة اللاجئ الحزين اليائس الباكي القلق، وحلت محلها صورة اللاجئ المتمرد الثائر الرافض للذل والهوان، الساعي إلى استعادة وطنه بالمقاومة والجهاد، المستعد لتقديم الشهداء حتى يتحرر الوطن من الاحتلال، وقد ملأ الأمل والتفاؤل والإرادة حنايا قلبه، أما على الجانب الفني، فقد حققت صورة اللاجئ قدراً من النضج والاكتمال، واتجهت في تجسيد صور اللاجئ إلى الصور الكلية النامية والعضوية المتآزرة مع بقية أجزاء النص الشعري، والمحملة بالطاقات الإيحائية التي تخدم رؤيتها الشعرية، مع استخدام موفق للتعبيرات الموحية، وتوظيف للوسائل التعبيرية المستوحاة من الفنون الأخرى؛ لتعبر عن تجربة إنسانية تماهت فيها الأبعاد الذاتية مع الأبعاد الجمعية.

وصفوة القول، فقد قدمت الدراسة نماذجاً من تجربة الشاعرة فدوى طوقان استلهمت مادتها من مأساة اللاجئين، التي أوحت إليها بصور دامية من واقعهم الأليم: من تشريد وتوزع في المنافي والشتات، ومزجت صورها برؤيتها الذاتية وتجربتها الإنسانية، وتفاعلت معها وفق قدرتها وموهبتها.

استلهمت الشاعرة صورها الشعرية وخيالها من واقع المأساة، فجاءت صورها صادقة نابضة بالحركة والصوت والإيحاء، نابضة بعمق المأساة التي نزلت بالشعب الفلسطيني وما تولد عنها من معاناة حسية ونفسية. كذلك حتمت طبيعة الموضوع الذي عالجته الشاعرة انتهاج سبيل السهولة والبساطة والوضوح في اللغة الشعرية: ألفاظاً وتراكيب، دون الخروج على المألوف في لغتنا العذبة.

تنوعت صورة اللاجئ في شعرها، وشملت أنماطاً متعددة من اللاجئين، فثمة المرأة اللاجئة التي أولتها اهتماماً خاصاً، وأفردت لها قصائد مستقلة، وهناك الرجل اللاجئ الذي قدم روحه فداء للوطن والعودة إليه، ورسمت أيضاً صوراً فردية للاجئ المشرد تجلت فيها ملامحه المادية والمعنوية، إلى جانب رسمها صوراً جماعية للاجئين بخاصة أولئك الذين مارست العصابات الصهيونية بحقهم القتل والاغتيال.

لم تأت صورة اللاجئ عند الشاعرة صوراً فردية، وإنما جاءت في مجملها صوراً جماعية لشعب طُرد قسراً عن أرض آبائه وأجداده، وانتزع من دياره ليلقى بعيداً عن وطنه، وجسدت إصرارهم على العودة إليه. وأن غربتهم مهما طالت فلا بد أن تنتهي بالعودة، وكشفت هذه الصور للمتلقي ما تزخر به من حزن

وأسى، وما تنبض به من شوق عارم، وحنين جارف إلى الوطن، إدراكاً منها بأن الشعر يظل من أهم وسائل التعبير عن خلجات النفوس، وتصوير آمال الإنسان وتطلعاته.

كشفت الدراسة أيضاً عن أن مستوى التوظيف الفني لصورة اللاجئ الفلسطيني في تجربة الشاعرة فدوى طوقان قد جاء بدرجات متفاوتة، فإذا كانت قد مالت في تجسيد بعض صورها إلى استعمال الأسلوب التقريري المباشر، وما يتبعه من أساليب الوعظ والإرشاد، فإنها سلكت في مواطن أخرى طريقة التعبير بالصورة، وإثرائها بالانفعال الصادق، والعاطفة الجياشة، والإيقاع النغمي الملائم للموضوع، مع المحافظة على الوحدة العضوية للقصيدة، إلى جانب توظيف الأسلوب الدرامي وأدواته من حوار، واسترجاع وتقطيع وتناص وغيرها؛ الأمر الذي أثرى التجربة لديها وزادها عمقا وثراء.

---

[1]) عن تجربة فدوى طوقان الشعرية انظر: أبو غضيب، هاني. (2003): فدوى طوقان، الموقف والقضية، ط1. دار وائل للنشر والتوزيع. عمان، الأردن. وحول حياتها انظر: شيخ عمر، رمضان. (2002). سيرة فدوى طوقان وأهميتها في دراسة أشعارها. جامعة النجاح الوطنية. نابلس.

[2]) التطاوي، عبد الله. (1984). القصيدة الأموية رؤية تحليلية. مكتبة غريب. القاهرة، ص أ

[3]) طوقان ، فدوى.(1993). الأعمال الشعرية الكاملة. ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.ص129

[4]) المصدر نفسه، ص 130.

[5])أحمد ، محمد فتوح(1978): الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة ، ط 2 ، ص205 .

[6]) حمدان، عبد الرحيم.(1983): شعر فدوى طوقان، دراسة نقدية". رسالة ماجستير غير منشورة. كلية التربية. جامعة الفاتح. طرابلس، ليبيا.ص270.

[7]) طوقان، فدوى. (1993). ص 137

[8]) المصدر نفسه، ص 138

[9]) طوقان، إبراهيم(1975) ديوان إبراهيم طوقان، إحسان عباس، دار القدس، بيروت، ص163

[10]) المصدر نفسه، : ص16

[11]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 146

[12]) المصدر نفسه، (1993). ص146

[13]) روز غريّب – نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر – المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، 1980 .ص107).

[14]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 147

[15]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 148 ، 149

[16]) حمدان، عبد الرحيم(2007): النص الموازي في تجربة فدوى طوقان الشعرية "الخطاب التقديمي نموذجاً " مجلة جامعة النجاح، نابلس، المجلد 21 ، عدد 2 ،ص 586 .

[17]) طوقان ، فدوى. (1993). ص121

[18]) المصدر نفسه، ص140

[19]) المصدر نفسه، ص 142 ، 143

[20]) المصدر نفسه، ص412 ، 413

[21]) صالح، فخري (2004): تحولات فدوى طوقان الشعرية من الرومانسية إلى لغة التعبير المباشر، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد 57 .، ص111.

[22]) نايف، مي (2008): العنف وقضايا نسوية أخرى في شعر المرأة الفلسطينية، مركز الحضارة العربية، ط 1 ، القاهرة. ص 64 – 66 .

[23]) بكار يوسف(1980): قراءات نقدية،، بيروت ،ط ا ، ص 169 .

[24]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 170

[25]) المصدر نفسه، ص 310

[26]) المصدر نفسه، ص 170160 ،161

[27]) الرواشدة، سامح(2001):إشكالية التلقي والتأويل، ط أولى، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان الأردن.
[27]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 380.

[28]) المصدر نفسه، ص 493.

[29]) المصدر نفسه، ص 597.

[30]) المصدر نفسه، ص 597.

[31]) صرصور، فتحية(2003): الخصائص الأسلوبية في شعر فدوى طوقان ، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الأزهر، غزة، ص113.

[32]) شحلان، أحمد (2003): التوراة والشرعية الفلسطينية، كتاب الجيب، منشورات الزمن. بيروت، ص 102 .

[33]) بدر، عبد المحسن(1969):فدوى طوقان والبحث عن رؤية جديدة، مجلة الآداب، مارس، ص 141.

[34]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 143.

[35]) أبو عليان، ياسر.(1999). "الشهيد في شعر فدوى طوقان". مجلة بيت لحم. (18). ص 88.

[36]) شهاب، أسامة (2000) : أدب المرأة في فلسطين والأردن (1948 – 1988). ص 335

[37]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 609 ، 610 .

[38]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 599

[39]) يكرب، عمرو. (1974). ديوان عمرو بن معد يكرب، تحقيق مطاع الطرابيشي. دمشق
[40]) الأغا، يحيى(1998): الصورة الفنية والوجدان الإسلامي في شعر فدوى طوقان، دار الحكمة غزة، ص182 .

[41]) العمصي، أمين (1995): الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني بعد المأساة، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا ط أولى، ص 458 .

[42]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 156

[43]) قنيطة، ثابت (2000): المرأة في الشعر الفلسطيني المعاصر، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة عين شمس.ص 230

[4444]) شكري ،غالي(1970): أدب المقاومة، دار المعارف، مصر، ص409.

[45]) صبحي، محيي الدين. (1972). دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. ص229.

[46]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 511، 512

[47])الزوزني، أبو عبد الله (د. ت): شرح المعلقات السبع، بيروت ص 7

[48]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 512
[49]) المصدر نفسه، ص 142 ، 143.

[50]) المصدر نفسه، ص 142

[51]) المصدر نفسه، ص 147

[52]) المصدر نفسه، ص 494

[53]) المصدر نفسه، ص 154 ، 155.

[54]) ثابت، عبلة.(2009). البنيات التركيبية في الشعر الفلسطيني المعاصر، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، ص171.

[55]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 149 .

[56]) المصدر نفسه، ص 146

[57]) أبو عليان، ياسر، (1999)، ص78

[58]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 132.

[59])سنداوي، خالد(1993): الصورة الشعرية عند فدوى طوقان،مطبعة دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، فلسطين المحتلة، حيفا.

[60]) طوقان ، فدوى. (1993). ص 560 .

[61]) أبو غضيب، هاني. (2003): فدوى طوقان، الموقف والقضية، ط1. دار وائل للنشر والتوزيع. عمان، الأردن، ص199 .

[62]) المصدر نفسه، ص 149.

[63]) المصدر نفسه، ص 530 ، 531.

[64]) المصدر نفسه، ص 489.

[65]) المصدر نفسه، ص 498.